خطبة صلاة الجمعة 9/ 4/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(التراحم رحمة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12]

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به.

والأذن الواعية: هي أذن سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجِبِه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة الخامسة عشرة في سلسلة عنوانها (**توعية**)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنُعَمِّم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: **التراحم رحمة**

أصل علاقة المسلم بمن حوله الرحمة والرفق والشفقة، سواء كان من حوله نباتاً أو حيوانا أو إنساناً، مؤمناً أو غير مؤمن.

أخرج الشيخان ومالك: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِيْ بِطَرِيْقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيْهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىْ مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِيْ بَلَغَ مِنِّيْ فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَ بِفِيْهِ حَتَّىْ رَقِيَ فَسَقَىْ الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَه**» فقالُوْا: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ لَنَا فِيْ الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فقال: «**فِيْ كُلِّ كَبْدٍ حَرَّى رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

وروى الطبراني في "الأوسط"، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصْغي للهرة الإناء فتشرب، رحمة بها.

وأخرج ابن عساكر، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالصبيان والعيال.

وقد وصف الله تعالى رسوله والمؤمنين بالتراحم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

قال الطبري: رَقِيقَةٌ قُلُوبُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، لِينَةٌ أَنْفُسُهُمْ لَهُمْ، هَيِّنَةٌ عَلَيْهِمْ لَهُمْ.

وقال قتادة: أَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةَ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

روى الشيخان عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمُهُ اللهُ تَعَالَىْ**».

ووصف الله تعالى أهل اليمين بأنهم كانوا في الدنيا متراحمين: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 17، 18].

قال التستري: تواصوا بالمرحمة أي بالتراحم بين الخلق.

قال ابن أبي حاتم أي رحمة الناس كلهم. قال الفخر الرازي في تفسيره: (التواصي بالمرحمة هو أن يحث بعضهم بعضاً على أن يرحم المظلوم أو الفقير، أو يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه).

أصاب قريشاً قحطٌ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهم على كفرهم وعدائهم للنبي صلى الله عليه وسلم، جاء في شرح السِّيَر الكبير: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ إِلَى مَكَّةَ حِينَ قَحَطُوا، وَأَمَرَ بِدَفْعِ ذَلِكَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لِيُفَرِّقَهَا عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ

مَكَّةَ. فَقَبِلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ، وَأَبَى صَفْوَانُ وَقَالَ: مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إِلَّا أَنْ يَخْدَعَ شُبَّانَنَا) قال ذلك وما علم أن خُلُق المسلم الرحمة!.

مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ من أهل الكتاب يَسْأَلُ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةَ وَالسِّنَّ. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ؛ فَوَ اللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَن أكلنا شيبته ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ.

إنها رحمة المسلم مع الناس كافة.

فالأصل في علاقة المسلم مع من حوله من المخلوقات الرحمة والرفق والشفقة؛ فإذا كان هذا المخلوق إنساناً زادت رحمة المسلم به وإشفاقه عليه، فإذا كان هذا الإنسان أخاه المسلم بلغت الرحمة منتهاها وصارت تراحماً بينهم.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: قَالَ طَلْحَةُ بن عبد اللَّهِ: خَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً فِي سَوَادِ اللَّيْلِ فَدَخَلَ بَيْتًا فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَى ذَلِكَ البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيكِ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ يَتَعَاهَدُنِي مُدَّةَ كَذَا وَكَذَا يَأْتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَذَى.

إنه التراحم، والتراحم رحمة.

وَقَالَ أَسْلَمُ مَوْلَى عُمَرَ: قَدِمَ الْمَدِينَةَ رُفْقَةٌ مِنْ تُجَّارٍ، فَنَزَلُوا الْمُصَلَّى فَقَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ الرحمن بن عوف: هل لك أن تحرسهم اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ! فَبَاتَا يَحْرُسَانِهِمْ وَيُصَلِّيَانِ، فَسَمِعَ عُمَرُ بُكَاءَ صَبِيٍّ فَتَوَجَّهَ نَحْوَهُ فَقَالَ لِأُمِّهِ: اتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى وَأَحْسِنِي إِلَى صَبِيِّكِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ، فَسَمِعَ بُكَاءَهُ فَعَادَ إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَادَ إلى مَكَانَهُ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ سَمِعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَى إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ لَهَا: وَيْحَكِ، إنك أمّ سوءٍ، ما لي أَرَى ابْنَكِ لَا يَقَرُّ مُنْذُ اللَّيْلَةِ مِنَ الْبُكَاءِ؟ ! فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي أَشْغَلُهُ عَنِ الطَّعَامِ فَيَأْبَى ذَلِكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: لِأَنَّ عُمَرَ لَا يَفْرِضُ إِلَّا لِلْمَفْطُومِ.

قَالَ: وكم عمر ابنك هذا؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا شَهْرًا، فَقَالَ: وَيْحَكِ لَا تُعْجِلِيهِ عَنِ الْفِطَامِ.

فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ وَهُوَ لَا يَسْتَبِينُ لِلنَّاسِ قِرَاءَتُهُ مِنَ الْبُكَاءِ. قَالَ: بُؤْسًا لِعُمَرَ! كَمْ قَتَلَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ!.

ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيهِ فَنَادَى، لَا تُعْجِلُوا صِبْيَانَكُمْ عَنِ الْفِطَامِ فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ.

وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْآفَاقِ.

إنه التراحم، والتراحم رحمة!.

أيها الإخوة:

الأصل في علاقة المسلم مع من حوله من المخلوقات الرحمة والرفق والشفقة؛ فإذا كان هذا المخلوق إنساناً زادت رحمة المسلم به وإشفاقه عليه، فإذا كان هذا الإنسان أخاه المسلم بلغت الرحمة منتهاها وصارت تراحماً بينهم.

أخرج البخاري ومسلم عن النّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى**».

نسمع عمن يؤجر داره ببدل تساوي أضعافه لكنه يرحم من لا يجد.

نسمع عمن أقرض قريبه مبلغاً من المال يعينه به على زواجه ثم استرده منه نفسَه مع تسارع تغير قيمة العملة، ولكنه يرحمه ويحنو عليه.

نسمع عمن تضاعف جهدها في تقليل نفقات منزلها ترحم زوجها الذي يكد ويجهد ولا يجد إلا الكفاف.

نسمع عن جمعيات خيرية متخصصة بالمجال الصحي تنفق خلال عام مئات الملايين على معالجة مرضى لا يجدون المال الكافي لعلاج أنفسهم، يرحم ذوي اليسار من لا يسار عنده. وقل مثل ذلك في جمعيات الإغاثة والأيتام والتعليم والتدريب المهني.

نسمع عن مدرسات يعرضن خدماتهن في تدريس الأطفال بمقابل زهيد أو من دون مقابل يرحمْنَ من لا يجد مالاً أو مكاناً للدراسة.

نرى سائقاً يوقف سيارته ليسمح لامرأة عجوز تعينها ابنتها لعبور الطريق يرحمهما ويشفق عليهما.

ونرى آخر يوقف سيارته ليوصل الواقفين إلى مقصدهم رحمة بهم من طول الانتظار.

ولئن كنا نسمع حيناً عمن لا يرحم الناس، فإن شأن الخلق أنهم لا يستوون؛ منهم الصالح ومنهم الطالح، منهم الرحيم ومنهم القاسي، منهم صاحب البر ومنهم صاحب الشر، وقد صدر القانون الرباني بأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض، وبأن الزَّبد يذهب جُفاء.

وإني ذاكر في آخر هذه الخطبة ثلاثةَ أمور تزيد التراحم بيننا:

أولها– التمسك بهدي القرآن والسنة:

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد سمعتم في الخطبة أطرافاً من رقة قلبه كان جباراً في الجاهلية يلطم أخته فيدمي وجهها، فلما تمسك بهدي القرآن والسنة صار رقيق القلب مرهف الإحساس يخاف من الله أن يسأله عن شاة زلت قدمها على شاطئ دجلة لِمَ لَمْ تُعَبِّد لها الطريق يا عمر!.

لقد صاغ القرآن والسنة عمراً جديداً، بل صاغ أمة تتراحم ومجتمعاً يتعاطف.

ثانيها– التدرب على المظاهر السلوكية للرحمة وترك أضدادها.

فبِرُّ الوالدين مظهرٌ سلوكي من مظاهر الرحمة، والنفقة على الزوجة والأولاد مظهر من مظاهر الرحمة، والصدقة على الفقراء والمساكين مظهر من مظاهر الرحمة، والتيسير على المعسر مظهر من مظاهر الرحمة، وإكرام اليتيم مظهر من مظاهر الرحمة، وقل مثل ذلك في إكرام الضيف وزيارة المريض والإحسان إلى الجوار والعفو عن الناس وبذل المعروف للآخرين.

فمهما مارست المظاهر السلوكية للرحمة أثَّرت في قلبك إلى أن تتمكن الرقة من قلبك فتملأه شفقة ورحمة ورأفة.

ثالثها– ترك الاستغراق في الشهوات والملذات: إذ الاستغراق فيها يجعل صاحبها من أهل الترف، وفي أهل الترف قسوة في القلب وكِبْر في النفس وظلم للعباد.

روى البيهقي بإسناده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْكُمْ إِلَّا رَحِيمٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ قَالَ: «**لَيْسَ رَحْمَةُ أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ حَتَّى يَرْحَمَ النَّاسَ**».

أيها الإخوة:

هذه ثلاثة تزيد الترحم بيننا: التمسك بهدي القرآن والسنة، والتدرب على المظاهر السلوكية للرحمة وترك أضدادها، وترك الاستغراق في الشهوات والملذات.

واذكروا أن التراحم رحمة، والقسوة بلاء، وأن التراحم فرج، والفظاظة شقاء، وأن التراحم راحة، والغلظة جفاء، واذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرَّاحِمُوْنَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ تَعَالَىْ، اِرْحَمُوْا مَنْ فِيْ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِيْ السَّمَاءِ». [أبو داود والترمذي]. وقال: «**لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ**».

والحمد لله رب العالمين